الحجاج في الخطاب البلاغي العربي القديم: مظاهره وأبعاده

الجاحظ أنموذجا

ذ. امبارك عراس

المملكة المغربية

الملخص

تسعى هذه الدراسة إلى استكشاف مظاهر الحجاج في البلاغة العربية القديمة من خلال تحليل مشروع الجاحظ الحجاجي بوصفه نموذجا مبكرا لبناء خطاب حجاجي متكامل، وتنطلق من إشكالية محورية تتمثل في إمكانية عدّ الجاحظ مؤسسا لرؤية حجاجية داخل التراث البلاغي العربي، وتتناول الدراسة ثلاثة محاور: المفاهيم الحجاجية ووظائفها الإقناعية في البلاغة القديمة، الجدل المعاصر حول أصالة الحجاج في هذا التراث، ثم تحليل آليات الحجاج في نصوص الجاحظ، وتعتمد الدراسة منهجا تحليليا تداوليا يربط بين المعطى التراثي والمفاهيم الحديثة، بهدف إعادة تقييم إسهام الجاحظ في ترسيخ بلاغة ناجعة تستند إلى الحجة والدليل قبل الزخرفة والتجميل.

Argumentation in Classical Arabic Rhetorical Discourse

Manifestations and Dimensions

Al-Jāḥiẓ as a Model

Abstract

This study seeks to explore the manifestations of argumentation in classical Arabic rhetoric by analyzing al-Jāḥiẓ argumentative project as an early model for constructing a coherent argumentative discourse. It is driven by a central question: to what extent can al-Jahiz be considered a founder of an argumentative vision within the Arabic rhetorical tradition? The study is organized around three main axes: the conceptual foundations and persuasive functions of argumentation in classical rhetoric; the contemporary debate regarding the authenticity of argumentation in the Arabic rhetorical heritage; and an analysis of the argumentative mechanisms in al-Jāḥiẓ texts. The research adopts a discursive-analytical approach that bridges traditional sources with modern theoretical frameworks, aiming to reassess al-Jāḥiẓ contribution to establishing an effective rhetoric grounded in evidence and reasoning rather than mere ornamentation and embellishment.

مقدمة

يشكل الحجاج أحد المكونات الجوهرية في بناء الخطاب البلاغي، وهو ما يجعل منه آلية تواصلية فاعلة تعمل على توجيه الفكر وبناء آليات الإقناع والتأثير، وقد حظي هذا المفهوم في البلاغة الغربية الحديثة باهتمام بالغ منذ منتصف القرن العشرين، لا سيما مع أعمال بيرلمان وتيتيكا التي أعادت تعريف البلاغة بوصفها فنا للحجاج لا مجرد صنعة بيانية غير أن السؤال الذي ظل يؤرق الدرس البلاغي العربي المعاصر يتمثل في: هل كان الحجاج حاضرا بوصفه منظومة مفهومية وإجرائية في البلاغة العربية القديمة؟ وإذا كان كذلك، فكيف تمثّل البلاغيون العرب هذا الحضور، وما هي تجلياته المعرفية والوظيفية في نصوصهم؟

إن البحث في مظاهر الحجاج داخل الخطاب البلاغي العربي القديم يكشف عن صورة مركبة، تتداخل فيها الرؤى البلاغية، والنقدية، واللغوية، والفقهية، بما يجعل من الحجاج مفهوما عابرا للتخصصات، وحاضرا بصيغ متنوعة ومسميات مختلفة مثل: الاحتجاج، والاستدلال والقياس، والمجادلة، دون أن يتمظهر دائما في قالب نظري صريح أو موحد، ومن هنا تبرز الحاجة إلى استقراء هذا الحضور من خلال النصوص التراثية ذات البعد التواصلي الإقناعي، وفي مقدمتها مؤلفات الجاحظ، الذي يعد من أوائل من سعى إلى بناء تصور متكامل للحجاج في ضوء البيان العربي جامعا بين النظرية البلاغية والتجربة الخطابية الواقعية.

وتحاول هذه الدراسة أن تقارب ظاهرة الحجاج في البلاغة العربية القديمة من خلال رصد مظاهرها وتجلياتها المفهومية والوظيفية عند الجاحظ بوصفه نموذجا دالا على الوعي المبكر بمركزية الحجاج في بناء الخطاب، كما تروم إبراز العلاقة البنيوية بين البلاغة والحجاج في التراث، وتفكيك النقاش المعاصر بين أنصار الأصالة ومنكريها، وتنطلق في ذلك من فرضية أساس مؤداها أن الحجاج لم يكن شيئا طارئا على البلاغة العربية، بل مكونا أصيلا فيها، وإن اختلفت تسمياته، وتفاوتت تمثلاته بحسب السياقات المعرفية والوظيفية.

الحجاج في البلاغة العربية القديمة: الأصول المفهومية والغايات الإقناعية

يعتبر الحجاج بوصفه نشاطا عقليا وعملا فكريا، يتكئ على تقنيات معلومة من أجل التأثير في المتلقي لحمله على الاستجابة والإذعان دون جبر ولا إكراه من العناصر المركزية في بناء الخطاب الإنساني، غير أنه لم يستعمل في التراث العربي القديم بشكل موحد، بل ورد بأشكال ومسميات متعددة عبر مداخل معرفية وفكرية مختلفة، فقد تناوله البلاغيون واللغويون، والنقاد، والفقهاء، من زوايا تخصصهم، مستخدمين مصطلحات متنوعة مثل: الاستدلال والاستشهاد، والاحتجاج، والقياس، والتمثيل، والجدل[1].

ولقد وردت هذه المصطلحات على مستويات متعددة؛ فبعضها جاء صريحا، مثل الاحتجاج، والاحتجاج العقلي والحجاج النظري، والمحاجة، مما يدل على وعي واضح بفكرة الحجاج وأدواته، وأخرى وردت عبر تعريفات، أو عن طريق مفاهيم شديدة الترابط معه مثل؛ المذهب الكلامي، والاستدراج، والتلطف، والتغاير، بالإضافة إلى مصطلحات أخرى أحالت عليه ضمنيا بالإشارة، أو التعليق، مثل التضمين، والمحاورة[2]، وهذا التنوع في تسمية الحجاج عبر مجالات متعددة يبرز الوجود الفعلي له، ويؤكد على انتشار مفهومه داخل الخطاب العربي القديم، بالرغم من غياب وحدة المصطلح في بعض الأحيان.

ولما كانت البلاغة علما يتأسس على آليات التعبير والتأثير، فإن حضور البعد الحِجاجي في بنيتها المعرفية يعد أمرا أصيلا لا طارئا؛ إذ إن من بين أهم وظائف البلاغة التأثير في المتلقي ودفعه إلى تبني فكرة أو موقف معين، ومن ثمّ، فإن الحجاج وجد في البلاغة تربة خصبة يستثمر من خلالها أدواتها الأسلوبية والبيانية لتحقيق غاياته الإقناعية، ويكفي للدلالة على هذا التداخل البنيوي بين البلاغة والحجاج أن نعود إلى جملة

---

[1] . علي محمد علي سليمان، الحجاج عند البلاغيين العرب، ضمن كتاب الحجاج والاستدلال الحجاجي دراسات في البلاغة الجديدة، إشراف حافظ اسماعيل علوي، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، ط1، 2011، ص 14.

[2] . ناصر بن دخيل الله بن فالح السعيدي، الاحتجاج العقلي والمعنى البلاغي . دراسة وصفية بحث دكتوراه في اللاغة والنقد جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1426هـ، ص 45.

من التعريفات التي صاغها علماء البلاغة في التراث والتي تبرز بشكل صريح أن الحجاج مكون جوهري في البلاغة، بل يمكن اعتباره في كثير من الأحيان عمادها ومرتكزها الأساس، ومن ذلك قولهم: جماع البلاغة البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة[3]، وأن من أغراضها في الكلام إقامة الحجة[4]، وذهب أبو هلال العسكري إلى أن أعلى رتبها أن يحتج للمذموم حتى يخرجه في معرض المحمود، وللممدوح حتى يصيره في صورة المذموم[5].

يتضح مما سلف أن الدرس البلاغي العربي كان يمتلك وعيا ناضجا بأهمية الحجاج في الخطاب، ومدى فاعليته في تحقيق الإقناع والتأثير في المتلقي، وقد تميز هذا الوعي بشموليته وتوازنه، حيث تعامل مع الحجاج بوصفه عنصرا مركزيا ضمن منظومة البلاغة، من دون إغفال الأبعاد الأخرى التي تكمل وظائفها، فقد نظر البلاغيون العرب إلى البلاغة بصفتها علما متعدد المقاصد، يتجاوز الوظيفة الإقناعية إلى آفاق أرحب من التعبير والتأثير، مثل؛ الإيضاح والبيان والتكثيف والإيجاز، والجمال الفني، والإثارة الوجدانية، والاستدلال والحجاج[6]، وبهذا التصور يتبين أن الحجاج يشكل بعدا من أبعاد البلاغة، وأنه يتداخل مع غيره من الوظائف البلاغية التي تسهم مجتمعة في إغناء الخطاب وتعزيز فاعليته بما يحقق له التنوع والثراء في المقاصد والأساليب.

وفي هذا الإطار، يوضح صابر الحباشة أن الحجاج ليس "علما ـ فنا يوازي البلاغة بل هو ترسانة من الأساليب والأدوات يتم اقتراضها من البلاغة، (ومن غيرها، كالمنطق واللغة العادية)، ولذلك، فمن اليسير الحديث عن اندماج الحجاج مع البلاغة في كثير من الأساليب، ولما كان مجال الحجاج هو المحتمل، وغير المؤكد والمتوقع، فقد كان من مصلحة الخطاب الحجاجي أن يقوي طرحه بالاعتماد على الأساليب البلاغية والبيانية التي تُظهر المعنى بطريقة أجلى وأوقع في النفس"[7].

انطلاقا من هذا التصور، وبالاستناد إلى المعطيات السابقة، يمكن القول إن الخطاب الحجاجي يمثل نمطا تواصليا مخصوصا، يتعدى وظيفة إيصال المعلومة بشكل مجرد إلى السعي نحو التأثير الواعي في المتلقي، سواء باستمالته نحو تبني موقف جديد، أو بدفعه إلى إعادة النظر في مواقفه السابقة، ومراجعة قناعاته من خلال آليات حجاجية وبلاغية محكمة ويقوم هذا الخطاب، في جوهره، على الحوار العقلاني والتفاعل الإقناعي، متجنبا كل أشكال الإكراه والمغالطة، أو الإغراء السطحي، إذ إن الحجاج لا يسعى إلى فرض الرأي بالقوة أو بالترهيب، بل يعتمد مسالك استدلالية متنوعة تعلي من شأن الفكرة وتستند إلى بنية لغوية وبلاغية دقيقة، تُمارَس فيها سلطة الإقناع بقوة الحجة لا بقوة السلطة، وبسحر البيان لا برهبة القسر.

وبهذا، يتضح أن العلاقة بين البلاغة والحجاج هي علاقة تكامل بنيوي ووظيفي يشد أحدهما الآخر، ويلتقيان عند نقطة جوهرية تتمثل في غاية التأثير في المتلقي، فكلاهما يشتركان في السعي نحو توجيه المتلقي وإقناعه، ويعتمدان في ذلك على توظيف الإمكانات التعبيرية للغة، سواء من جهة جمالية الأسلوب، أم من جهة قوة المنطق والحجة وتشكل هذه المساحة المشتركة بين الحقلين ميدانا غنيا يتجلى فيه فن التأثير عبر البيان، حيث تتعاضد الوظائف البلاغية والحجاجية في خدمة الخطاب، وتمنح المتكلم قدرة مضاعفة على التأثير عبر استخدام اللغة في أعلى تجلياتها الإقناعية.

---

[3] ـ أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري، **كتاب الصناعتين**، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط 1، مصر، 1371هـ ـ 1952، ص 15.

[4] ـ المرجع نفسه، ص 16.

[5] ـ المرجع نفسه، ص 53.

[6] ـ نشأت علي محمود، "في لسانيات البلاغة العربية"، ضمن كتاب **"بحوث في بلاغة القرآن والبلاغة العربية"**، أربيل مطبعة روداو، 2018، ص 11.

[7] ـ صابر الحباشة، **التداولية والحجاج مداخل ونصوص**، صفحات للدراسات والنشر، ط 1، دمشق، 2008، ص 50.

وتشير الدراسات الحديثة إلى أن التبلور الحقيقي للحجاج في البلاغة العربية قد بدأ مع الجاحظ الذي يعد من المؤسسين الأوائل لهذا الحقل المعرفي، حيث عمل على صياغة رؤية منهجية للحجاج ضمن إطار البلاغة والإقناع، وقد تطور هذا الاهتمام لاحقا على يد عدد من البلاغيين أمثال أبي هلال العسكري وابن وهب وعبد القاهر الجرجاني، قبل أن يشهد الحجاج فترة من الضعف بعد ذروة نضجه الفكري.

2. الحجاج في الخطاب البلاغي العربي: بين رؤية التأصيل وموقف التشكيك

برزت على مدى العقود الماضية وجهات نظر متباينة بين الباحثين العرب حول مدى أصالة الحجاج في التراث البلاغي العربي، فبينما يرى فريق من الباحثين أن الحجاج أصيل ومتجذر في البلاغة العربية، يرى آخرون أنه غائب، أو ضعيف الحضور، ويشككون في وجود نظرية حجاجية متكاملة في التراث العربي القديم.

1.2. الباحثون المؤيدون لأصالة الحجاج

يرتكز هؤلاء الباحثون على مفهوم أن "البلاغة عند البلاغيين العرب هي الإقناع، والحجاج كان له حضور بارز فيها، حيث شكل البرهان والإقناع أحد أهم مباحثها"[8]، ويؤكدون على أن البلاغة العربية كانت تهدف بدرجة أولى إلى تحقيق الغاية الإقناعية في الخطاب، ومن بين الدلائل التي يستند إليها هذا الفريق[9]:

- المفهوم التداولي للبلاغة؛ حيث أن كتب البلاغة القديمة مليئة بتعريفات تحمل بعدا حجاجيا، إذ لم تركز على جانب اللفظ فقط، بل على قدرته في إقناع المتلقي وتحقيق الغاية.
- وجود مصطلحات حجاجية، مثل: "المذهب الكلامي"، "الاستدلال"، "الإلجاء"، و"الاستدراج" ومجاراة الخصم، والتي تدل على وعي مبكر بأدوات الإقناع والحجاج داخل الخطاب.

تؤكد هذه الرؤية أن الحجاج يشكل جوهر البلاغة وسبب وجودها، حيث أن الإقناع والحجاج وجهان لعملة واحدة.

2.2. الباحثون الرافضون لأصالة الحجاج

يستند الباحثون الرافضون لهذه الأصالة، مثل حمادي صمود الذي يعتبر أحد أبرز الباحثين المعاصرين المهتمين بقضايا الدرس الحجاجي، ومن القائلين بغياب التنظير الحجاجي في البلاغة العربية القديمة إلى عدة مسوغات منها[10]:

- نشأة البلاغة في بيئة الشعر الشفوي الذي ركز على البراعة الشكلية والوقع الصوتي، أكثر من البناء الداخلي والمنطقي الذي يعتمد عليه الحجاج.
- سيادة النقل والقرآن الكريم؛ حيث اعتبروا أن القرآن قطع الطريق على الحجاج العقلاني ليصبح هو الحجة النقلية القاطعة، مما أدى إلى غياب الحجاج في الثقافة العربية الإسلامية.
- طبيعة البلاغة العربية بوصفها بلاغة بيان، والتي تعنى بالوضوح والبيان، وبالتالي تقضي على الغموض والاختلاف الذي يقوم عليه الحجاج.

[8] . آمال يوسف المغامسي، الحجاج في الحديث النبوي دراسة تداولية، الدار المتوسطية للنشر، ط 1، تونس، 1437هـ. 2016 ص 59.

[9] . المرجع نفسه، ص 60.

[10] . آمال يوسف المغامسي، الحجاج في الحديث النبوي دراسة تداولية، ص 54 . 59

وقد رُدت عليه هذه الانتقادات بأن القرآن الكريم نفسه يحتوي على العديد من الأساليب الحجاجية والمنطقية ويدعو إلى المجادلة بالحسنى، كما أن الشعر العربي يمتلك عمقا حجاجيا في بنائه الخطابي، ولم يكن مجرد عرض صوتي أو جمالي، وكذلك، فإن الانغماس في النمط البلاغي البياني لا ينافي وجود الحجاج بوصفه أداة إقناع[11].

أما علي محمد علي سليمان فقد أضاف أسبابا أخرى، نذكر منها[12]:

- ارتباط الحجاج عند اليونانيين بالسفسطائيين الذين كانوا يستخدمون المغالطات، مما حول الانتباه عن الحجاج في الثقافة الإسلامية.
- اهتمام المتكلمين والمناطقة بالجوانب البرهانية والجدلية للحجاج دون تعميق الجانب البياني الأدبي.
- صعوبة تقنين الحجاج وتجزئته على خلاف فنون البلاغة التي كانت أكثر قابلية للتقسيم والتنظيم.

غير أن هذه الحجج تظل نسبية، فالحجاج لم يكن مقصورا على ميادين المنطق والمناطقة، بل كان موجودا ومتداولا في مجالات متعددة أدبية، وفكرية، وفلسفية، إضافة إلى أن العرب تميزوا بطبيعتهم الحوارية وقدرتهم على المحاججة، مما يؤكد أن الحجاج كان جزءا من بيئتهم التواصلية.

3. الدرس الحجاجي عند الجاحظ: البيان والإقناع

3. 1. الجاحظ ومشروعه الحجاجي

يعد أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت. 255هـ) من أعلام الفكر العربي القديم، ومن أبرز الرواد المؤسسين للبلاغة ذات البعد الحجاجي، إذ تميز بتكوين معرفي موسوعي جمع فيه بين البلاغة، والفكر الاجتماعي، والفلسفة، في رؤية فكرية متكاملة استجابت لسياقات عصره وتحولاته، لا سيما في ما يتعلق بمواجهة مظاهر العنف والاستبداد، وقد عبر ياقوت الحموي عن مكانته العلمية والأدبية بقولٍ حافل بالدلالة، فذكر أنه: "خطيب المسلمين، وشيخ المتكلمين، ومدرةُ المتقدمين والمتأخرين، إن تكلم حكى سحبان في البلاغة، وإن ناظر ضارع النظام في الجدال، وإن جدّ خرج في مسك عامر بن عبد قيس، وإن هزل زاد على مزبد، حبيب القلوب، ومراح الأرواح، وشيخ الأدب، ولسان العرب"[13] وهو توصيف يبرز إجماعا ضمنيا على فرادة الجاحظ في ميادين البيان والحجاج والجدل.

وقد كان للتنوع المعرفي والغنى الحضاري إلى جانب الفكر المذهبي دور كبير في تكوين مشروعه الفكري الذي حاول من خلاله أن يضع الأسس الكبرى لنظرية خاصة ببلاغة الحجاج والإقناع، وقد أسعفته ملكته اللغوية الباهرة وثقافته الواسعة في تحقيق هذا المشروع الكبير الذي توزعته مصنفاته النظرية والنقدية والإبداعية، والذي مزج فيه بين ما هو فكري بلاغي، وما هو اجتماعي إصلاحي أخلاقي، استجابة لظروف عصره، ولمتطلبات البيئة التي نشأ فيها، والتي عرفت انتشارا كبيرا لبعض الظواهر الخطيرة مثل؛ العنف والقمع اللذين كان يمارسهما أصحاب المذاهب الدينية والفرق السياسية وغيرهما، وسكوت الكثير من العلماء عن الإدلاء بآرائهم في بعض القضايا التي تخص الأمة، من هنا جاءت كتابات الجاحظ بصفتها حلا بديلا لثقافة العنف والإكراه، وللسكوت المتخاذل، ولتؤسس لمنهج التفكير العقلاني باستعمال الحجة والدليل

---

[11] . المرجع نفسه، ص 54 . 59.

[12] . ينظر مقاله المعنون ب "الحجاج عند البلاغيين العرب" ضمن كتاب الحجاج والاستدلال الحجاجي دراسات في البلاغة الجديدة، إشراف حافظ اسماعيل علوي، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، ط 1، 2011، ص 14.

[13] . الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي، معجم الأدباء، دار الغرب الإسلامي ط1، 1993، ج 5 ص 2113.

للإقناع من غير عنف ولا إلزام قسري، وما أشبه هذا بما أسس عليه بيرلمان وتيتيكا نظريتها في الحجاج منتصف القرن الماضي والتي قدمها بوصفها آلية جديدة بديلة لما كان سائدا في عصرهما الذي عاشا فيه.

2.3. محاولة لبناء نظرية للإقناع

يعتبر كتاب "البيان والتبيين" من أبرز المصادر التي أرست دعائم الدرس الحجاجي في الثقافة العربية القديمة، لما تضمنه من رؤى معمقة حول مفهوم البيان ووظائفه التواصلية والإقناعية، وقد قدم الجاحظ في هذا المؤلَّف معالجة دقيقة للبيان باعتباره وسيلة فعالة للإفهام وتحقيق التواصل بين المتكلم والمتلقي، مع التركيز على البعد التداولي الذي يُفعّل الخطاب في سياقاته الواقعية، فالبيان لدى الجاحظ يشكل مرتكزا أساسيا في بناء الخطاب الإقناعي، حيث يقدم بوصفه فعلا لغويا موجها نحو التأثير في المتلقي من خلال تنويع الأساليب وتكييف الوسائل التعبيرية بما يتلاءم مع مقام التخاطب وحاجات السامع، ويبدو من خلال معالجة الجاحظ لهذا المفهوم في "البيان والتبيين" أنه عمل على بلورة تصور منهجي أولي لبلاغة تقوم على الفعالية التواصلية، وتجعل من الخطاب اللغوي الشفوي محورا مركزيا في تحقيق الإفهام والإقناع، وفي هذا الصدد، يرى محمد العمري أن "تحليل استراتيجية البيان للجاحظ يكشف بكل وضوح أن هذا الكتاب محاولة لوضع نظرية لبلاغة الإقناع مركزها الخطاب اللغوي الشفوي"[14]، ويظهر هذا التصور وعيا متقدما بوظيفة البيان داخل الخطاب، حيث يعد وسيلة ناجعة لتوجيه الفكر وتعديل المواقف من خلال استثمار إمكانات اللغة، وصياغة المعنى ضمن مقامات تفاعلية تجعل من الإقناع غاية أصيلة من غايات البيان في الثقافة العربية.

والجدير بالذكر هنا أن الجاحظ عبر عن الحجاج بالبيان الذي هو عنده "اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[15]، معنى هذا أن البيان عند الجاحظ مرتبط بثنائية الذات والآخر، الذات التي هي المتكلم الذي يتولى عملية الإبانة، أو الإفهام، سعيا وراء الإقناع، والآخر الذي هو المخاطَب الذي يستقبل الإبانة أو الإفهام رغبة في حصول الاقتناع، وبذلك يكون الطرفان مشاركين معا في عملية إنتاج الخطاب وتلقيه.

وقد لخص محمد العمري مفهوم البيان عن الجاحظ حين أشار إلى وظيفتيه اللتين تتنازعانه، حيث ذكر أن الأولى منهما تتمثل في الإفهام، بينما تتمظهر الثانية في الحجاج "الإقناع"، هذا بعد أن تحدث عن مادة البيان والتبين التي قال بأنها لا تخرج عن ثلاثة محاور[16]، يتعلق المحور الأول بوظيفة البيان وقيمته، وقد تحدث عن هذا الأمر من خلال تعريفه للبيان وربطه بالفهم والإفهام والدفاع، والخطابة وما يتصل بها، بينما نجده في الثاني الذي يرتبط بالعملية البيانية وأدواتها يتكلم عن المقام الخطابي "أحوال المخاطبين"، وأنواع الأدلة على المعاني "اللغة، الإشارة الخط، العقد..." أما في الثالث الذي يتعلق بقيمة البيان العربي وتاريخه، فقد خصصه للدفاع عن هذا البيان وتقاليده ضد الشعوبيين والمتطرفين مؤرخا له في الآن ذاته من خلال ذكره لأخبار الخطباء وثقافاتهم ومكانتهم وأساليبهم الحجاجية[17].

---

[14] . محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتدادها، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1999، ص 196 . 197.

[15] . الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1988 ج 1، ص 82.

[16] . محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص 193 . 195

[17] . محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط 1 بنغازي، ليبيا، 2008، ص 213.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن التعريف الذي قدمه الجاحظ للبيان يعد نموذجا حجاجيا متقدما يجسد تصورا تداوليا وظيفيا لمفهوم البيان، فالجاحظ لا يربط البيان بنوع خطابي معين، أو بأسلوب بلاغي مخصوص، بل يوسع دلالته ليشمل كل ما يفضي إلى الفهم ويحقق الإفهام، معتبرا أن "مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام"، وهو بذلك يؤسس لتعريف إجرائي للبيان ينسجم مع ما تسميه النظريات الحجاجية المعاصرة لا سيما لدى بيرلمان وتيتيكا، بـ"المواضع الحجاجية[18]"، حيث يستند الجاحظ إلى موضع الغاية، وموضع الفعالية، ليقيم حكمه على صلاحية البيان، كما يعتمد على حجة التمثيل الشامل حين يقرر أن أي وسيلة تحقق هذا الأثر ـ "كائنا ما كان البيان ومن أي جنس كان الدليل" ـ تعد بيانا، ومن خلال استعاراته الكاشفة، كـ"هتك الحجاب"، و"قناع المعنى"، يُفعّل الجاحظ ما يُعرف بالحجاج الإدراكي الذي يجعل الفهم فعلا محسوسا، وتؤكد هذه الرؤية بعدا تداوليا حجاجيا يقوم على إعادة ترتيب القيم البلاغية بحيث تصبح الوظيفة المعرفية للخطاب مقدمة على جماليته أو نوعه وهو ما يلتقي مع الأسس النظرية التي يقوم عليها الحجاج التداولي عند ديكرو وأنسكومبر، حيث يتمثل البيان في قدرته على تحقيق الفعالية التواصلية داخل السياق[19]، وفيما يلي جدول بياني يبرز تجليات البعد الحجاجي للبيان عند الجاحظ:

تحليل حجاجي لمفهوم البيان	
الهدف الحجاجي	إقناع المتلقي بأن البيان هو كل ما يحقق الفهم، بغض النظر عن شكله
نوع الحجاج	سببي، تمثيلي، وظيفي
المواضع الحجاجية	الغاية، الفعالية، الوضوح
الوسائل البلاغية	استعارة، تركيب شرطي، تعميم
الرؤية التداولية	تفضيل الوظيفة على الشكل، والوضوح على الزينة اللفظية

3.3. مظاهر الحجاج في أعمال الجاحظ

أ. عناصر الخطاب ومكوناته

أشار الجاحظ في سياق حديثه عن موضوع البلاغة إلى قضايا كثيرة تتعلق بالحجاج، من أبرزها استشهاده بصحيفة تنسب للثقافة الهندية يقول فيها: "أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ساكن الجوارح، قليل اللحظ، متخير اللفظ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ولا الملوك بكلام السوقة، ويكون في قواه فضل التصرف في كل طبقة، ولا يدقق المعاني كل التدقيق"[20]، فمن خلال هذا

[18] . المرجع نفسه، ص 112.

[19] . مجموعة من الباحثين، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، منوبة، تونس، ص 352.

[20] الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 95

النص تبدو لنا موجهات الإقناع وآلياته واضحة باعتبارها من مقومات النشاط الحجاجي الذي يتوخى استمالة المخاطب لحمله على الاستجابة والإذعان.

وإذا ربطنا هذا النص بما جاءت به نظريات الحجاج المعاصرة، ولا سيما نظرية بيرلمان وتيتيكا، سنجده يجسد تصورا مبكرا لما ستؤسس له هذه النظريات لاحقا في حقل الخطاب الإنساني، خصوصا في ما يتصل بالعلاقة بين المقام والخطاب الإقناعي، فاشتراطه أن يخاطب الخطيب كل فئة بلغتها المناسبة ينسجم تماما مع مبدأ "الملاءمة الحجاجية" الذي يعد من أسس الخطاب الحجاجي الفعال في النظريات الحديثة، حيث يُراعي المتكلم صورة المخاطَب، ومقام الكلام، وسياق التلقي.

كما يبرز الجاحظ أهمية الاتزان الانفعالي والجسدي للخطيب، وهو ما يوافق ما يُعرف في الحجاج المعاصر بضرورة التحكم في "الإيتوس الخطابي"، أي: الصورة التي يُشكلها المتكلم عن نفسه لضمان قبوله من لدن المتلقي وهي عنصر حاسم في العملية الإقناعية، أما دعوته إلى عدم تدقيق المعاني كل التدقيق، فتشير إلى وعي بضرورة اقتصاد الحجة وتبسيطها بما يناسب جمهور المخاطَبين، وهو ما يتلاقى مع مفهوم "الوضوح التداولي" وضرورة تحقيق تواصل فعال يراعي قدرات المتلقي المعرفية والثقافية، وبهذا المنظور، تكون الخطابة من الأجناس الخطابية التي يتجلى فيها العنصر الحجاجي بكل مقوماته باعتبارها بناء متكاملا تحضر فيه عناصر الخطاب الضرورية، وقد أولاها الجاحظ عناية كبيرة من خلال حديثه الموسع عن الشروط اللازم توفرها في كل من الخطيب والمخاطب والخطاب ومقام التخاطب وهكذا يظهر الجاحظ بزي مفكر حِجاجي سبق بحدسه كثيرا من التصورات التي طورتها نظريات الحجاج في العصر الحديث.

ب ـ الحوار الحجاجي

يعد الحوار أحد الأشكال الأسلوبية التي يحضر فيها البعد الحجاجي بشكل كبير، حيث يُنظر إليه بوصفه تفاعلا لغويا يقوم على تبادل الكلام بين طرفين أو أكثر بغرض عرض الآراء ومناقشتها، سعيا إلى الإقناع، أو التقريب بين وجهات النظر، و يرى كريستيان بلانتان أن دراسة الحجاج تنطلق من تحليل الخطاب الحواري، باعتباره الإطار الأمثل للكشف عن البُنى التنظيمية التي يرتكز عليها، نظرا لما يتيحه من تفاعل لغوي وتبادل منطقي بين الأطراف المتحاورة[21]، وإذا ما نظرنا في التراث البلاغي العربي القديم، فإننا نجد أن الجاحظ كان من أوائل المفكرين الذين أدركوا القيمة الحجاجية للحوار ووظفوه داخل خطاباتهم وكتاباتهم، باعتباره آلية للتفكير والنقد وبناء المعرفة، ومن الأمثلة الدالة عليه قوله: "حدثني صديق لي قال: قلت للعتابي: ما البلاغة؟ قال كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ فإذا أردت اللسان الذي يروق الألسنة ويفوق كل خطيب بإظهار ما غم من الحق وتصوير الباطل في صورة الحق قال فقلت له: قد عرفت الإعادة والحبسة فما الاستعانة؟ قال: أما تراه إذا تحدث قال عند مقاطع كلامه يا هناه ويا هذا ويا هيه واسمع مني واستمع إلي وافهم عني أو لست تفهم أو لست تعقل فهذا كله وما أشبهه عي وفساد"[22].

فهذا النص يدل على أن الجاحظ كان سباقا للتنبيه إلى الدور الذي يطلع به الحوار في عملية الإقناع، والسؤال الذي طرحه صديق الجاحظ على العتابي حول ماهية البلاغة، وإجابة العتابي له، شكل الحجر الأساس في بناء الحوار واستمراريته، وقد جسد بوضوح فاعلية هذا الأسلوب الخطابي في الممارسة الحجاجية.

ج ـ آليات التأكيد

من المؤشرات الحجاجية التي أولاها الجاحظ اهتماما لافتا، إلى جانب البنية اللغوية والبلاغية للخطاب، الإشارة والصوت بوصفهما عنصرين تأكيديين يعززان فعالية القول ويسهمان في تقوية أثره على المتلقي، وهذان المؤشران، وإن كانا خارجين جزئيا عن بنية اللغة اللفظية، إلا أن الجاحظ يدمجهما بوعي بلاغي ضمن منظومة البيان، إدراكا منه لوظيفتهما التأثيرية في مقام الحجاج، يقول في هذا السياق: "رام أبو

---

[21] . بلانتان، كريستيان، الحجاج، ترجمة: عبد القادر المهيري، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس 2101، ص 54.

[22] . الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص 113.

حذيفة إسقاط الراء من كلامه، وإخراجها من حروف منطقه، ولست أعني خطبه المحفوظة ورسائله المخلدة، لأن ذلك يحتمل الصنعة، وإنما عنيت محاجة الخصوم."[23] في هذا القول يتجلى وعي الجاحظ بأن الخطاب الحجاجي الحقيقي لا يقاس في النصوص المعدة سلفا بل في القول المرتجل التفاعلي، حيث تظهر العلامات اللغوية وغير اللغوية في تآزر حجاجي واضح.

من هنا تأتي أهمية الإشارة، التي يُفرد لها الجاحظ مكانة كبرى في خطابه، إذ يقول: "الإشارة واللفظ شريكان ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، وما تغني عن الخط"[24]، يتضح من هذا النص أن الجاحظ يرى في الإشارة أداة تواصل حجاجية تؤدي وظيفة لا تقل عن اللفظ نفسه، بل قد تقوم مقامه أو تسبقه في مواقف تستدعي التكثيف أو السرعة أو التلميح، كما أن حديث الجاحظ عن الإشارة بوصفها "ترجمانا" عن اللفظ يحيل إلى تصور متقدم للغة الجسد في الخطاب بوصفها جزءا لا يتجزأ من العملية الحجاجية، لا يفتأ يسهم في تعزيز الإيتوس والباتوس واللوغوس، بحسب تقسيمات الحجاج الأرسطي التي أعاد الحجاج المعاصر إحياءها.

وبذلك، يتضح أن الجاحظ لا يقصر الحجاج على اللغة الملفوظة، بل يوسع دائرته ليشمل كل مكونات التعبير البشري، في تصور بياني شامل يجعل من البيان فعلا مركبا يتجاوز حدود الكلمة إلى مجالات الحضور الفيزيائي والصوتي للمتكلم، مما يبرز عمق الوعي التداولي والحجاجي في فكره.

د ـ الإبداع الأدبي

ونحن نتحدث عن المنجز الحجاجي للجاحظ في كتبه ومؤلفاته المختلفة لا تفوتنا الإشارة إلى ما تميز به كتابه "البخلاء" من طابع حجاجي تمثل في عرضه لمختلف الحجج والأدلة والبراهين حول القضية الأساس التي بنى عليها هذا الكتاب، وهي ظاهرة البخل التي حاول أن يسخر بها من أعداء العروبة وخصومها الألذاء، فجاء مؤلفه هذا مليئا بالحجاج وتقنياته المختلفة، رغبة منه في إفهام المتلقي وإقناعه بما يعرضه عليه من أفكار حول ظاهرة البخل، ومن أمثلة ذلك قوله: "وأبو عبد الرحمن هذا هو الذي قال لابنه: أي بني! إن إنفاق القراريط يفتح عليك أبواب الدوانيق، وإنفاق الدوانيق يفتح عليك أبواب الدراهم، وإنفاق الدراهم يفتح عليك أبواب الدنانير، والعشرات تفتح عليك أبواب المئين والمئون تفتح عليك أبواب الألوف، حتى يأتي ذلك على الفرع والأصل ويطمس على العين والأثر، ويحطم القليل والكثير، أي بني! إنما صار تأويل الدرهم (دار الهم)، وتأويل الدينار (يدني إلى النار)، إن الدرهم إذا خرج إلي غير خلف، وإلى غير بدله دار الهم على دائق مخرجه، وقيل: إن الدينار يدني إلى النار لأنه إذا أنفقه في غير خلف، وأخرج إلى غير بدل، بقي مخفقا معدما، وفقيرا مبلطا متحرج المخارج، وتدعوه الضرورة إلى المكاسب الرديئة والطعم الخبيثة والخبيث من الكسب يسقط العدالة، ويذهب بالمروءة، ويوجب الحد، ويدخل النار[25]".

يعرض الجاحظ في هذا النص قولا لأحد البخلاء المشهورين في عصره وهو يحاول أن يقنع ابنه بأن الإنفاق هو بداية لسلسلة من التدهور المالي والاجتماعي والأخلاقي، حيث قدم له مجموعة من الحجج التحذيرية ضد الإنفاق داعيا إياه إلى التمسك بالبخل والتحلي به باعتباره وسيلة للحفاظ على المال وتجنب الفقر والمهانة والضياع الدنيوي والأخروي.

وقد ذكر الجاحظ بخل هذا الرجل بقوله: "وأبو عبد الرحمان هذا شديد البخل، شديد العارضة عضب اللسان، وكان يحتج للبخل ويوصي به ويدعو إليه، وما علمت أحجدا جرد في ذلك كتابا إلا سهل بن هارون وهو"[26]، وهذا قول يظهر شدة بخل هذه الشخصية المثيرة التي ترى هذه الخصلة فضيلة حميدة تستحق الترغيب فيها والتبشير بها.

---

[23] . الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1، ص 37.

[24] . المرجع نفسه، ج1، ص 82.

[25] . الجاحظ، البخلاء، دار مكتبة الهلال، ط 2، بيروت، لبنان، 1419، ص 143 . 144.

[26] . الجاحظ، البخلاء، ص 143.

وإذا أردنا أن نحلل هذا النص وفق مبدأ السلم الحجاجي الذي جاءت به نظرية الحجاج اللغوي المعاصرة بوصفه "علاقة ترتيبية للحجج"[27] وذلك بترتيب الحجج بطريقة منطقية تبدأ من الحجة الأضعف إلى الحجة الأقوى من أجل تحقيق التأثير الأمثل في ذهن المتلقي، فإننا سنجد صاحب هذا النص قد بنى حججه وقدمها على هذا المنوال، إذ بدأ بحجج قريبة من الحياة اليومية، ثم تدرج إلى حجج أكثر عمقا وتأثيرا في النفس والعقل، وذلك على الشكل الآتي[28]:

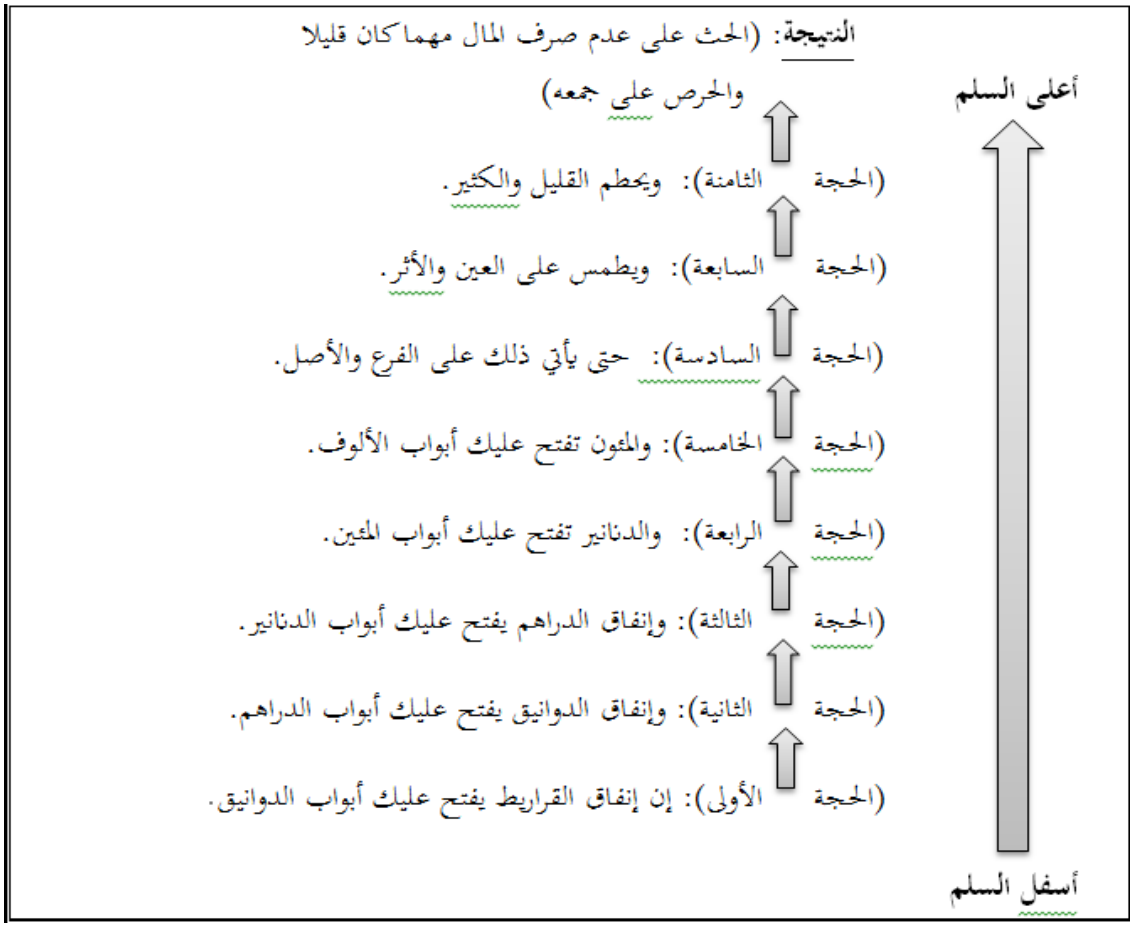

انطلاقا من هذا المخطط البياني الخاص بالسلم الحجاجي يتبين لنا أن الرجل البخيل الذي يحكي عنه الجاحظ قد تدرج في بناء حججه وفق سلم حجاجي تصاعدي يهدف إلى التحذير من التبذير والدعوة إلى حفظ المال مهما كان قليلا، يبدأ الحجاج من أبسط مستويات الإنفاق، حيث يبين أن إنفاق القراريط (وهي أصغر وحدات النقد) يؤدي إلى إنفاق الدوانيق، ثم الدراهم، فالدنانير، حتى يصل إلى إنفاق المئين والألوف، وتتصاعد الحجج لتُظهر الآثار الوخيمة لهذا الإنفاق، إذ ينتهي الحال بزوال الأصل والفرع، وطمس العين والأثر، وتحطيم القليل والكثير، وبهذا التسلسل الحجاجي المنطقي والمتدرج، يفضي صاحب النص إلى نتيجة مركزية مفادها ضرورة الاقتصاد والحرص على المال، مؤكدا أن الهدر المالي، ولو كان بسيطا في بدايته، قد يؤدي إلى الفقر والانحدار الاجتماعي.

---

[27] . أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، منتديات سور الأزبكية، ط 1، 1426هـ. 2006، ص 20.

[28] . سليمان شلال السويط، غازي عوض العتيبي، السلم الحجاجي في كتاب البخلاء للجاحظ، مجلة كلية دار العلوم، 2021، ص 157

من هنا نؤكد على أن نتاج الجاحظ الأدبي ـ خاصة في بخلائه ـ يتسم بحضور واضح للأسلوب الحجاجي، وهو ما يعكس ثراء معارفه وتنوع مصادره الثقافية، كما يبرز هذا الحضور قدرة الجاحظ على توظيف أنماط حجاجية متعددة تتكامل في بنية خطابية دقيقة، تجلت بوضوح في أعماله الموسوعية [29]، مما يجعل من تجربته البلاغية مرجعا أصيلا في فهم الحجاج داخل السياق العربي القديم.

بناء على ما سبق، تتضح مظاهر الحجاج في أعمال الجاحظ من خلال عدة محاور، يمكن استعراضها كالآتي:

- عناصر الخطاب ومكوناته: فقد تحدث عن "ربطة الجأش" التي تعد أساسا لثبات الخطاب وأهمية اختيار اللفظ الملائم، وهو ما يعكس فهما متقدما لآليات الإقناع.
- فن الخطابة :أولى الجاحظ الخطابة اهتماما كبيرا، معتبرا إياها بناء متكاملا يحوي عناصر الحجاج المتنوعة، من تنظير عملي، ومهارات لغوية، وأدوات إقناعية.
- الحوار الحجاجي: كان للجاحظ عناية خاصة بدور الحوار اعتباره وسيلة لإقناع الآخر، فقد جسد ذلك من خلال حواره مع العتابي حول ماهية البلاغة، وهو نموذج حي على فاعلية المحاججة في بناء الخطاب.
- آليات التأكيد :أشار إلى أهمية الإشارة والصوت في تعزيز قوة الحجة.
- توظيف الحجاج في الإبداع الأدبي: يتجلى ذلك في كتابه "البخلاء"، حيث استخدم الحجج والبراهين وتقنيات أخرى مثل السلم الحجاجي لإقناع القارئ بأفكاره حول ظاهرة البخل، محولا موضوعا اجتماعيا إلى قضية جدلية تستحق التحليل.

خاتمة

استنادا إلى ما سبق، نخلص إلى القول إن الجاحظ قد أسس من خلال معالجته العميقة لمفهوم البيان ومقتضياته الإقناعية لبنية حجاجية واضحة المعالم داخل الخطاب البلاغي العربي القديم، حيث شكل تصوره للإفهام والتأثير واهتمامه بعناصر الخطاب والمقام أرضية خصبة لتداخل لافت مع ما جاءت به النظريات الحجاجية الحديثة، بالرغم من غياب المصطلح الحجاجي الصريح في مؤلفاته، وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار الجاحظ حلقة مركزية في الجسر المعرفي الممتد بين البلاغة العربية التراثية ونظرية الحجاج المعاصرة، مما يفتح المجال أمام قراءات تأويلية جديدة لتراثه البلاغي في سياق الدرس التداولي والحجاجي الراهن، ومن هذا المنطلق، توصي هذه الدراسة بضرورة توسيع البحث في النصوص البلاغية التراثية الأخرى، ولا سيما عند أعلام آخرين، مثل أبي هلال العسكري وعبد القاهر الجرجاني للكشف عن تجليات الفكر الحجاجي في كتاباتهم، واستثمار أدوات التحليل الحجاجي التداولي المعاصر في إعادة قراءة التراث البلاغي العربي قراءة تتجاوز البعد الجمالي إلى الوظيفة الإقناعية والخطابية التي اضطلع بها هذا التراث في سياقه الثقافي والمعرفي.

[29] . سليمان شلال السويط، غازي عوض العتيبي، السلم الحجاجي في كتاب البخلاء للجاحظ، ص 192.

المصادر والمراجع

- آمال يوسف المغامسي، الحجاج في الحديث النبوي دراسة تداولية، الدار المتوسطية للنشر، ط 1، تونس 1437هـ - 2016.
- أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، منتديات سور الأزبكية، ط 1، مصر، 1426هـ. 2006.
- بلانتان، كريستيان، الحجاج، ترجمة: عبد القادر المهيري، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2013.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي ط 4، مصر، 1980.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البخلاء، دار مكتبة الهلال، ط 2، بيروت، لبنان، 1419هـ.
- الحموي، ياقوت بن عبد الله، معجم الأدباء، دار الشعب، ج 1، لبنان، 1969.
- سليمان شلال السويط، غازي عوض العتيبي، "السلم الحجاجي في كتاب البخلاء للجاحظ"، مجلة كلية دار العلوم، ع 81، 2021.
- سليمان، علي محمد علي، "الحجاج عند البلاغيين العرب"، ضمن :الحجاج والاستدلال الحجاجي دراسات في البلاغة الجديدة، إشراف: حافظ إسماعيل علوي، دار ورد، ط 1، الأردن، 2011.
- صمود، حمادي، إنشاء النفي وشروطه النحوية والدلالية، مركز النشر الجامعي، ط 1، تونس، 2006.
- العمري، محمد، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، أفريقيا الشرق، ط 1، المغرب، 2013.
- العمري، محمد، الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، المركز الثقافي العربي، ط 1، لبنان، 1990.
- الغامدي، عادل بن علي، الحجاج في قصص الأمثال القديمة . مقاربة سردية تداولية، كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ط 1، الأردن، 2016.
- مجموعة من الباحثين، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف حمادي صمود، منوبة، د. ط، تونس، د. ت.
- مجموعة من المؤلفين، الحجاج والاستدلال الحجاجي دراسات في البلاغة الجديدة، إشراف حافظ إسماعيل علوي، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، ط 1، الأردن، 2011.
- محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط 1، بنغازي، ليبيا، 2008.